رجال الفكر والدعوة

الجزء الثالث

الإمام السرهندي

حياته وأعماله

تأليف

أبو الحسن علي الحسني الندوي

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثانية

١٤١٤هـ - ١٩٩٤م

دار القلم للنشر والتوزيع

شارع السور - عمارة السور - الطابق الأول

هاتف: ٢٤٥٧٤٠٧ - ٢٤٥٨٤٧٨ - برقيا توزيعكو

ص.ب ٢٠١٤٦ الصفاة 13062 الكويت

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الكتاب

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين محمد وآله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد فإن الحكاية يرجع تاريخها إلى عام ١٣٥٤ - ١٣٥٥ هـ (٣٥ أو ١٩٣٦م) حين أوصاني أخي ومربيّ الدكتور السيد عبد العلي الحسيني رحمه الله أمين ندوة العلماء - سابقاً - بقراءة «رسائل الإمام الرباني مجدد الألف الثاني الشيخ أحمد بن عبد الأحد السرهندي» وقد كنت - إذ ذاك - في الثانية والعشرين ، أو الثالثة والعشرين من عمري وكنت انخرطت - حديثاً - في سلك المدرسين بدار العلوم ندوة العلماء ، ولم يكن لي آنذاك اتجاه كبير إلى الأبحاث العميقة في الحقائق الدينية ، وحقيقة الإحسان ، كما لم أكن على اطلاع على مصطلحات القوم وتعبيراتهم ، بل كان يغلب عليّ الذوقُ الأدبي ، وغرام بالكتابات الأدبية العربية ، والدراسات التاريخية ، وكنت ولوعاً بالكتب التي كانت تصدر من دور النشر والمطابع الرئيسية في القاهرة وبيروت بطباعة أنيقة ، وفي مظهر جميل جذاب ، وقد كان أخي الأكبر - الذي كنت تربَيت في حجره ، ونشأت في عطفه وكنفه ، نشأة علمية وعقلية - يعرف هذه النزعة الموجودة عندي معرفة جيدة ، ولكن لعله بإشارته عليّ بقراءة تلك المجموعة من الرسائل للإمام السرهندي كان يريد أن يذكّرني بما امتازت به أسرتي ، التي أنتمي إليها ، من أصالة في الفكر ، وعمق في البحث ، وتقدير للقيم الروحية ، والمثل الخلقية .

وكانت أسرتي منذ ثلاثة قرون - على أقل تقدير - ذات اتصال وثيق - فكرياً وروحياً - مع أسرتيْ الإمام السرهندي ، والإمام أحمد بن عبد الرحيم المشهور بولي الله الدهولي .

وكانت عندنا في مكتبة والـدي نسخـة عتيقـة من مجموعـة «رسائـل الإمـام السرهندي» صدرت من إحدى المطابع الهندية ، وكانت هذه النسخة تشتمل على ثلاثة مجلدات ، فبدأت بمطالعتها نزولاً على رغبة أخي الأكبر ، وبدافع الطاعة له ، إلاّ أنني لم أستطـع المُضّي في الطـريق ، ولـم أصبـر معهـا طويلاً ، حتـى تركت الكتاب ، وقد كانت أكبر معاناتي ، من الرسائل التي كتبهـا الإمـام إلى شيخـه ، ومربّيه الروحي الشيخ الكبير الشيخ عبد الباقي البدخشي الدهلوي النقشبنـدي ، والتي شرح فيها تجاربه وخواطره الشخصية في مجال التربية والسلوك إلى الله ، ولكن إلحاح أخي الأكبر وتوجيهه ـ باستمـرار ـ إلى قراءة هذه الرسائـل ، وقـراءة «إزالـة الخفاء» للإمام ولي الله الدهلوي ، و«الصراط المستقيم» للسيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد ، و«منصب الإمامة» للعلامة محمد إسماعيل الشهيد ، دفعني إلى اجتياز هذه العقبة ، مهما كلف ذلك من مشقة وعنت ، وهاجت الغير في نفسي وتحمّست وقلت لا يتسنّى لي إهمال وصية أخي الأكبر ، وهو من هو في عطفه وحنانه ، ثم يسبب هذا الإهمال الحرمان من قراءة كتاب مبارك ، عرف كبار العلماء المشايخ الأجلاء بإجلاله وتقديره والعناية به .

وحالفني التوفيق فمضيت ، وكلما إزددت قراءة لهذه الرسائل ازددت رغبـة فيها وتذوّقاً لها ، وبدأت أسيغ الموضوع في حدود علمي وقدرتي على الفهم ، حتى أخذ الكتاب بمجامع قلبي وأصبحت له أسيراً ، أشعـر فيه بلـذة غريبـة ، وطعـم لذيذ ، لا أكاد أجده في الكتب الأدبية الممتعة ، وكانت هذه الفترة الزمنية من أدق فترات حياتي ، فقد كان الزمن زمن المراهقة الفكرية وشرخ الشبـاب ، والصراع النفسي والعقلي ، لأسبـاب يطـول ذكرهـا ، اعتورتنـي فيهـا بعض الإبتـلاءات القاسية ، فكان الكتاب في كل ذلك خير مرشد وموجّه ، فقد كنت أشعر أثناء قراءة الكتاب ، بسكينة تغشاني ، وتملأ جوانحي ، وتغمر قلبي ، لعلها كانت جديدة عليّ تماماً ، لم يسبق لها في حياتي مثيل ، وقد انتهى هذا السير الـذي كنـت أسير في الكتاب لمجرد طاعة أخي الأكبر ، والذي كان يغلب عليه دافع الغيرة و اتباع الأمر ،

إلى سرور ونشوة ، ومتعة روحية .

ثم بعد مدة يسيرة من الزمن بدأت بقراءة هذا الكتاب مرة ثانية ، أقصد فيها جمع ما تكرر وانتثر في مواضع مختلفة من الكتاب في موضوع واحد ، وفي مقصد من المقاصد التي يتناولها الإمام ، ووضع العناوين لها ، وكانت الخطوة الأولى لهذا العمل إعداد فهرس جامع لموادّ الكتاب ومحتوياته ، كالتوحيد الخالص ، وإبطال الشرك ، وغير ذلك ، فتتبعت ما جاء في كل موضوع من هذه المواضيع ، وأشرت إليه بذكر الأرقام المتسلسلة للرسائل وأرقام الصفحات فبحثت - مثلاً - عن المواضع التي طرق فيها الإمام موضوع النبوة والرسالة والرسائل التي جاء فيها الحديث عن السنة والبدعة ، وأين تعرض لإبطال البدعة الحسنة ، وأنها ليس لها وجود ، وفي أي الرسائل تناول البحث في «وحدة الوجود» و«وحدة الشهود» ، وفي أيها وردت الأبحاث العميقة في موضوع «العقل المجرد» و«الكشف المجرد» ، وبالجملة ، فبعد أن اشتغلت بالفحص والتتبع عدة أسابيع تهيَّأ لديَّ كشف جامع لجميع المواضيع التي تعرض لها الإمام ، ووضعت هذا الكشف في داخل هذه النسخة من الكتاب على عزم ترتيب هذه المواد المنثورة في الكتاب تحت عناوين مختلفة ، ثم حدث أن هذا الكتاب استعير من المكتبة ولم يعد إليها كما يقع كثيراً ، وكان أسفي على ذهاب الفهرس الذي أجهدت في وضعه نفسي ، أكثر بكثير - بطبيعة الحال - من ذهاب تلك النسخة من الكتاب التي تستبدل بها غيرها ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً .

ثم خطرت فكرة في بالي ، وذلك حوالي ٦٤ - ١٣٦٥هـ (٤٥ - ١٩٤٦م) وهي أن أرتب هذه الرسائل ترتيباً جديداً ، مراعياً فيه المواضيع والأبحاث المختلفة ، وأقدمها بشرح وتعريف يتلاءم مع العقلية الجديدة للنشء الجديد ، بحيث تكون أنفع وأشوق للقارىء الجديد ، وتلقى فيه الأضواء على المآثر التجديدية للإمام السرهندي ، وما كان يتبوأه في تاريخ الإسلام من مكانة الإمامة والاجتهاد ، فشرعت في هذا العمل ، وأحببت أن أقدّم لكل فصل بكلمة تمهيدية تلخص الفكرة

الأساسية ، ولباب التحقيقات العلمية ، والأبحاث الدقيقة المبثوثة في مختلف رسائله ، في موضوع واحد ، ثم أقدم مقتبسات الرسائل في تنسيق علمي ، وترتيب موضوعي مفيد ، فأكتب على جانب من الصفحة متن الرسائل بالفارسية وعلى الجانب الآخر ترجمتها الأردية ، وأذكر في الحاشية شرح الألفاظ الغريبة ، والمصطلحات العلمية ، وأخرج الأحاديث ، ثم أسوق بعض ما كتب المتقدمون من كبار العلماء المحققين ، مما يؤيد ما ذهب إليه الإمام السرهندي ، كشيخ الإسلام ابن تيمية وتلاميذه ، وأئمة الإسلام ، عبر القرون والأقطار .

وقد كان هذا العمل واسع النطاق يتطلب مراعاة دقيقة للجوانب الكثيرة وتوفراً كاملاً على دراسة العلوم المتنوعة ، ولم يكن إنجاز هذه المهمة الضخمة بميسور على شاب مثلي في مقتبل العمر ، تتنازع فيه الأعمال التدريسية مع الأشغال التأليفية ، مع الدعوة الشعبية ، والجولات المتصلة .

ولأجل ذلك لم أستطع أن أنجز من هذا العمل إلاّ أبواب التوحيد والنبوة والرسالة ، ثم شغلتني الشواغل ، وصرفتني من هذا العمل الصوارف ، إلاّ أن ما وفّقت إليه من العمل في هذه المدة كان ذا قيمة كبيرة وفوائد كثيرة ، ونشره الصديق الفاضل الشيخ محمد منظور النعماني في مجلته الإسلامية الشهيرة «الفرقان» في أربع حلقات ما بين ٦٦ ـ ١٣٦٧هـ .

وبعد أن انقطعت عن هذا العمل بأعوام ، ثم حين بدأت بتأليف سلسلة «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» شعرت بضرورة الكتابة في ترجمة حياة الإمام السرهندي بصورة مستقلة ، بدل أن أقوم بترتيب جديد لرسائله ، وعمل مرهق في تنسيق محتوياتها ، وموضوعاتها ، ثم لما نشر المجلد الثاني من «رجال الفكر والدعوة» وكان يتضمن حياة شيخ الإسلام ابن تيمية ، تحتم عليّ أن أبدأ بترجمة حياة الإمام السرهندي ، وأصبح لزاماً أن يحلّ بهذه الترجمة العظيمة المجلد الثالث من «رجال الفكر والدعوة» ، إذ أن هذا العصر المضطرب بالفتن والثورات ، أحوج إلى ذلك

بالنظر إلى بعض الجوانب الخاصة ، وأن تنوير منهج الإمام السرهندي وحكمته العملية لأبناء هذا العصر وقادة الحركات ، والتنظيمات الإسلامية ، الذين يسرعون في تحدّي الحكومات والقوى السياسية ، ويعلنون الحرب عليها من غير هوادة ومن غير استعداد وتريث ، ويجرّونها إلى جبهة معارضة في بداية المرحلة وأول الطريق ، وتحدُث في طريق الدعوة ، والعمل البنّاء ، عقبات من دون ضرورة شديدة ومبرّر قوي ، إن عصرنا هذا يحتاج إلى هذه التجربة وإلى هذا المثال العملي أكثر من كل عصر مضى ، فكيف كان - يا ترى - ذلك المنهج الذي استطاع به إنسان أعزل لا يملك حولاً ولا طولاً ، وهو في زاوية من زواياه ، أن يغير مجرى التاريخ ويحوّل وجهة الامبراطورية المغولية ؟ .

لقد استرعى انتباهي - أول مرة - إلى هذه الحقيقة العظيمة أحاديث أخي الأكبر ومجالسه العلمية ، ثم عندما قرأت ذلك المقال العلمي المثير الذي دبّجه يراع العلامة السيد مناظر أحسن الكيلاني في مجلة «الفرقان» الشهرية الغراء ، العدد الخاص بالإمام المجدد السرهندي ، قوي إيماني بهذه الحقيقة وأنا بنفسي في كثير من مقالاتي ، وخطبي ومحاضراتي[1] ، أوضحت هذه الحقيقة ، وأشرت إلى هذه الناحية التجديدية ، ولا يزال هذا المنهج الرباني المؤثر ، هو المنهج الميسّر الذي حقق من النجاح والتوفيق ما لم يحققه غيره ، وازددت ثقة به ، واعتماداً عليه ، على مرّ الأيام وطول الدراسة ، والعناء والبحث .

ولكني كلما فكرت في إفراد كتاب لترجمة هذا الإمام اعترضتني عقبتان :

أولاهما أن أي كتاب يتناول سيرة الإمام السرهندي لا يمكن أن يخلو من إثارة

(١) كالمحاضرة التي ألقاها المؤلف في حفلة تكريم وترحيب ، عقدتها جمعية شبان المسلمين في ٤ من جمادي الآخرة سنة ١٣٧٠ هـ بالقاهرة، حضرها عدد وجيه من علماء مصر ، وأساتذة الأزهر ، وأعضاء هيئة كبار العلماء وقادة الجماعات ، بعنوان « الدعوة الإسلامية في الهند وتطوراتها » ، أو كالمحاضرة التي ألقاها في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة بعنوان « منهج أفضل في الاصلاح للدعاة والعلماء » في شعبان سنة ١٣٨٩ هـ .

قضية «وحدة الوجود» و«وحدة الشهود» وشرحهما وإفهامهما للنشء الجديد ، والمقارنة بينهما ، وترجيح نظرية «وحدة الشهود» مع الأدلة العلمية ، والمناقشة الناقدة الدقيقة ، فحين كانت تتمثل لي هذه المهمة الضخمة تكلّ عنها قواي ، وينصرف عنها قلمي لأمور ، منها : أن هذا الموضوع قد تكونت فيه مكتبة واسعة لا يتيسر الاختيار منها ، وتلخيصها واختصارها ، ثم أن هذه القضية تحتاج إلى المباحث الفلسفية الدقيقة ، وتفسير المصطلحات الفنية التي كثر فيها النزاع ، وثار حولها الجدال ، ولا يمكن بدون ذلك الخوض في الموضوع ، أضف إلى ذلك أن هذه القضية عملية ذوقية تجريبية ، أكثر منها نظرية وعلمية ، تعتمد على أحاسيس ومشاعر خاصة ، وتجارب شخصية وليس المؤلف منها في عير ولا نفير ، كما أن كثيراً من قارئي هذا الكتاب لا يجهلون هذه العلوم فحسب ، بل ينفرون منها ، ويستوحشون من ذكرها ، فما كنت أعرف تجاه هذه المشاكل طريق التغلب عليها ، ومن لي بالظفر في هذه المفازة الطويلة ؟ ، وإذا تجرد الكتاب عن هذه الفصول المهمة ـ التي يعتبرها بعض العلماء مجالاً حقيقياً لتجديده ، ويتركز عندهم فيها سرُّ عظمته ومأثرته التجديدية ـ فكيف يعتبر الكتاب ترجمة جامعة لحياته ، وتعريفاً كاملاً بأعماله ؟ .

كان يعترضني ، ويمسك بعنان قلمي عن الجريان ، في هذا المجال وجود مكتبة ضخمة في هذا الموضوع ، وصدور كتب وبحوث حدثت بين آونة وأخرى ، لا يتيسر للمؤلف زيادة ذات قيمة فيها ، وقد غلب على ظنه أن كتابه لا يملأ فراغاً واقعاً في المكتبة الإسلامية .

وبعد طول تفكير وتردد ونظر ، انحلت المشكلة الأولى ، فقلت : ينبغي أن آخذ بمبدأ «ما لا يدرك كله لا يترك كله» وأقدم على حل هذه المصطلحات وشرحها مستعيناً في ذلك بما جاء في كتب الشراح المحققين من علماء المدرسة الفكرية للشيخ محيي الدين بن عربي ، وما جاء في هذه الرسائل نفسها من إشارات وتفسيرات ، حتى يتيسر للقارىء الوقوف على هذا العلم ـ بصورة إجمالية ـ ومن أحب أن يستزيد

وساعده التوفيق يرجع إلى المصادر الأساسية ، أو يراجع العلماء المتخصصين في هذا الفن ، والغواصين في هذا البحر الزاخر ممن رسخوا في هذا العلم ، وتذوقوه وفقهوه ، «وقليل ما هم» .

أما العقبة الثانية ، فهو النظر إلى المكتبة العظيمة الواسعة التي تكونت في سيرة الإمام السرهندي ، والتعريف برسائله العظيمة ، ومآثره الخالدة ومناقبه ، الجمة ، وقد كنت أقف حائراً متهيباً أمامها ، أستصغر نفسي واستبعد الزيادة فيها أو الإضافة إليها بشيء جديد ، وقد هداني لتذليل هذه العقبة المثل العربي العلمي «كم ترك الأول للآخر» ، لقد تناول تجديد الإمام السرهندي وأعماله العظيمة ، الكثير من الكُتّاب والمؤلفين ، وكتبوا في هذا الموضوع الشيء الكثير ، ولكن لا يزال هناك جوانب بحث وتحقيق تحتاج إلى رفع اللثام ، ومسك الختام ، ومغامرة جديدة واقتحام .

ثم إن تغيرُ الأساليب ، وطرائق البيان ، وتغير الأوضاع والظروف ، والمثل والقيم ، والمناهج في الإفهام والتعبير ، يجعل الكتب التي ألفت قبل مدة من الزمن - في بعض الأحيان - في حاجة إلى نقل وتعبير جديد ، كأنها كانت مكتوبة بلغة أخرى ، كما أن كل مؤلف له طريقته ومنهجه في الاستنتاج من الوقائع والاستنباط من الأحداث ، وربط النتائج العلمية بالأسباب المؤثرة .

ورأى المؤلف أنه إذا تم هذا العمل بإخلاص وصفاء نية وجهود موفقة ، فإنه لا يكون عملاً نافعاً مستمراً فحسب ، بل سيكون - إذا قدر الله تعالى - هدية قيمة ، ورسالة حية للقرن الخامس عشر الهجري ، ووثيقة تاريخية لمنجزات عبد صالح من عباد الله المخلصين ، قام بها في دأب وصمت ، وتواضع وخشوع ، ولم يقتصر تأثيرها على قرن واحد ، بل امتد حتى شمل الألف الثاني كله ، وهي تحمل لهذا القرن الذي نفتتحه ، والذي تغيرت فيه الأوضاع تغيراً كبيراً ، درساً للعظة ، والعبرة ، والاستفادة .

وإنه يلهج قلب المؤلف وقلمه بشكر الله تعالى وبحمده ، والثناء عليه إذ وفقه بعد فترة طويلة دامت ربع قرن[1]، لاستئناف سلسلة «رجال الفكر والدعوة» ، وتأليف الجزء الثالث منها ، وقد طالت هذه الفترة حتى خاف المؤلف أن ينتهي الأجل دون استكمال هذه السلسلة الطيبة التي باركها الله تعالى ، ونفع بها خلقاً كثيراً ، وكان هذا الجزء الثالث يبحث عن الشخصية الفريدة التي حازت من القبول والعظمة والصيت البعيد في جهوده الموفقة لتجديد الدين ، ما لم يحظ به أي مصلح وداع في تاريخ الإصلاح والتجديد في القرون الأخيرة ، حتى إن اشتهاره بـ «مجدد الألف الثاني» طغى على اسمه ، وحل محله ، ولا يعرفه كثير من المثقفين إلاّ بهذا اللقب ، هذا في جانب ، وفي الجانب الآخر كتب لجهوده التجديدية العظيمة من النجاح والتوفيق ، ومن النتائج الباهرة المستمرة ، ما يندر نظيره في تاريخ الدعوة والإصلاح والتجديد في الإسلام ، كان ذلك يحثني على وضع هذا الكتاب ، كما أن إلحاح القراء لسلسلة «رجال الفكر والدعوة» والمقدرين لفضلها بلغ من الجد والصرامة حتى دفعني إلى التفكير في إكمال هذا الجزء بأسرع وقت ممكن ، بل إن كثيراً من أصدقاء المؤلف المخلصين ممن يمتازون بدراسة هذا الموضوع والتعمق فيه ، كانوا يشيرون عليّ بأن أتفرّغ لهذا الموضوع تفرغاً كاملاً وأقدّمه على سائر الأعمال التأليفية الأخرى .

ولكن معالجة هذا الموضوع لم تكن بالأمر الميسور كما كان يبدو لكثير من الناس ، فما كان يغني ـ نظراً إلى مقتضيات العصر الحاضر ، والمقاييس الجديدة للبحث والدراسة والتحقيق ـ أن يقتصر على عرض وتلخيص واختيار ، مما جاء في كتب التاريخ والتراجم القديمة ، بل كان الموضوع يحتاج إلى دراسة العصر الذي عاش فيه الإمام السرهندي وخلفياته ، والبيئة التي تربى فيها ، والأجواء التي قام

---

(١) كان صدور المجلد الثاني من « رجال الفكر والدعوة » وهو خاص بسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية ، ودوره في الاصلاح والتجديد ، سنة ١٣٧٧ هـ (١٩٥٧ م) وقد تأخر صدور ترجمته بالعربية الى سنة ١٣٩٥ هـ (١٩٧٥ م) فكان بين تأليف الجزء الثاني والجزء الثالث فترة ثلاث وعشرين سنة .

فيها بدوره التجديدي ، علمياً وتاريخياً ، وسياسياً وخلقياً ، واجتماعياً وعقائدياً ، دراسة ناقدة دقيقة ، فما هي الحركات التي كانت تعمل آنذاك ؛ وكيف كان الاضطراب الفكري ، والقلق الديني سائداً في الهند ، وما يجاورها من البلدان ، وكيف بدت طلائع الثورة على الشريعة والسنة في الأوساط العلمية والعقلية ؟ ، وما هي تلك المؤامرات والدسائس التي كانت تحاك حول الإسلام ، وما هي تلك الأماني اللذيذة ، والأحلام المعسولة التي راودت كثيراً من المغامرين الطموحين ، لقرب انتهاء الألف الأول من التقويم الإسلامي وغرست شكاً وارتياباً في القلوب المريضة ، والنفوس القلقة ، فكانت فتنة الفلسفة والعلوم العقلية في جانب ، وفتنة الإشراق والباطنية التي حاولت النيل من عظمة النبوة والرسالة المحمدية ، وادعت أن العقل والفلسفة ، والرياضيات الشاقة ، والمجاهدات الرهبانية ، وقمع الشهوات النفسانية ، كفيل بمعرفة الله معرفة صحيحة ، والوصول إليه ، ونيل الحظوة عنده ، والنجاة من عذابه ، وما جرته عقيدة «وحدة الوجود» المتطرفة من حرية مطلقة ، وإلحاد وزندقة .

زد إلى ذلك أنه لم تعد في هذا العصر للسنة النبوية ، والشريعة الإلهية أهمية ومكانة إلاَّ عند القليل من العلماء الراسخين ، والمشتغلين بعلوم السنة والحديث ، وسيطرت البدع بصورة علنية ـ تارة ، ومتسترة بستار «البدعة الحسنة» أخرى ، على المجتمع المسلم ـ وسرت أدواؤها في حياة المسلمين العملية ، ولم يكن هناك من يتشجع على مقاومة فكرة «البدعة الحسنة» .

وأدهى من كل ذلك وأمرّ أن الامبراطورية المغولية العظيمة ـ التي كانت تلي الامبراطورية العثمانية في السعة والقوة[1] والمجتمع المسلم الكبير الذي كان يعيش تحت ظل هذه الامبراطورية ـ بدأت وجهتها تتحول ـ بتأثير بعض الأغراض الشخصية ، والميول والاتجاهات الفردية ، والتأثيرات الخارجية والمصالح السياسية

---

(١) كانت الامبراطورية المغولية تلي الامبراطورية العثمانية في الرقعة ، والقوة العسكرية ، والوسائل والذخيرة ، وكانت حدودها تمتد من بنغال الشرقية الى حدود أفغانستان الغربية .

المزعومة ، من الارتباط بالدين الإسلامي ، والتمسك بأهداب النبوة المحمدية ـ على صاحبها الصلاة والسلام ـ وتمثيل الحضارة الإسلامية ، إلى الفلسفة البرهمية ، والحضارة الهندية ، ونظرية «وحدة الديانات»[1] ، وكان في مقدمة المخططين لهذه السياسة والمدبرين لهذه المؤامرة ، من يعتبر من نوابغ هذا العصر ذكاءً وعلماً ، وعبقرية أدبية وعقلية ، فكانوا يهتفون بأعلى صوتهم «قد أظل العالم الإنساني ـ بما فيه العالم الإسلامي ـ بدخول الألف الثاني ، عصر جديد ، يحتاج إلى دستور جديد للحياة ، وقيادة جديدة فتية للمجتمع البشري والإسلامي» .

فكيف تغلّب الإمام على هذا الوضع الشاذ ، وكيف غير هذا التيار الجارف ؟ وكيف كانت عملية «صناعة الرجال» وصنع العبقريات ، في زاوية بعيدة عن صخب الحياة ، وما هي تلك التربية الخلقية ، والتزكية الربانية التي تخرج في مدرستها رجال يتجمل بهم التاريخ ، والذين ألقوا رحالهم في مختلف أقطار الهند ، واتخذوها مركزاً وقاعدة ، لنشاطهم الدَّعَوي وعملهم التربوي ، وانتشر كثير منهم في أفغانستان وتركستان ، وامتدوا إلى العراق والشام ، ورحلوا إلى الحجاز وتركيا ، فقاموا بجهود جبارة ، وحركة قوية ، منتجة لإعلاء كلمة الله ، وإحياء السنن المماتة ، والذب عن الشريعة الغراء ، ومقاومة البدع والمنكرات ، وإزالة الآثار التي خلفها دعاة «وحدة الوجود» المتطرفون والصوفية المتحررون المنحرفون .

وخلاصة جهودهم أنهم نفخوا روحاً جديدة في المجتمع المسلم لعبادة الله وحده ، وابتغاء مرضاته ، وتعظيم شريعته ، وحرماته ، ولم يزالوا على هذا الدرب ثلاثة قرون متوالية ، مواصلين جهادهم وجهودهم بقوة إرادة ، وعلو همة ،

---

(١) يعني ان الاديان كلها سواء ، وكلها طرق موصلة الى الله ، تتحد في الغاية والصحة ، وتختلف في بعض المظاهر والشعارات ، وتسمي الله باسماء مختلفة تتفق في الحقيقة الجوهر ، ولا تزال لها دعوة قائمة يدين بها ، ويدعو اليها بعض كبار المفكرين والزعماء السياسيين القوميين في الهند ولعل الزعيم غاندي كان من أصحاب هذه الفكرة .

وانصراف تام ، حتى شمل تأثيرهم العالم الإسلامي كله ، فلا نجد بقعة من بقاع العالم الإسلامي إلاّ وتشهد فيها آثارهم وثمرات جهودهم وحُقّ لهم أن تنسب هذه القرون الثلاثة إلى إمامتهم وقيادتهم وتربيتهم ، وعندما يشهد المؤرخ المنصف هذا التأثير العالمي العظيم ، يمتلىء قلبه إعجاباً بهذه الشخصية الفريدة ، التي غيرت مجرى التاريخ .

وقد كان مما ينبغي ملاحظته بهذا الصدد والعناية به لمؤرخ حاذق ، أمران آخران ، أولهما : أنه لا ينبغي الاقتصار في إلقاء الضوء على عصر الإمام السرهندي ، وتصوير الفترة التي تربع فيها الملك جلال الدين أكبر التيموري عرش المملكة الهندية العظيمة على كتاب «منتخب التواريخ» للعلامة عبد القادر البدايوني[1] ، وعلى تلك المراجع التاريخية التي وصفت في الأيام الأخيرة بأنها أُلّفت تحت ضغط عواطف دينية حادة ، أو من وجهة نظر خاصة وتواضعت على تصوير عهد الملك أكبر تصويراً قاتماً مظلماً ، بل ينبغي الاستفادة من كتب أولئك المؤرخين المحايدين ، أو من تقريرات أولئك المحررين وأصحاب الأقلام في البلاط الملكي ، الذين لم يكونوا ممن يخالفون الملك أكبر فحسب ، بل كانوا يدافعون عنه ، ويدعون إلى أفكاره وأهدافه ، وكانوا معجبين بدستور الدولة ، الذي وضعه ، كما أنهم يتغنون بفضله ، وعبقريته ، ومواهبه الفذة ، وينبغي أن ندرس تلك التطورات والتغييرات ، التي بدأت من

(١) كان العلامة عبد القادر بن ملوك شاه البدايوني (م ١٠٠٤ هـ) مؤرخاً أميناً ، دقيق الملاحظة والنظر ، مؤلفاً شجاعاً ، لا يحابي أحداً ، (اقرأ ترجمته في الجزء الخامس من « نزهة الخواطر » للعلامة السيد عبد الحي الحسني رح) وقد انتقد الامبراطور « أكبر » انتقاداً لاذعاً ، وصوره تصويراً لا يرضي متملقيه ومطريه ، من أنصار التسامح الديني المزعوم الذي اشتهر به « أكبر » والدعوة الى الدين الإلهي (وبالأصح الأكبري) التي قادها ، وتزعمها ، من المؤرخين « العلمانيين » الأحرار في هذا العصر ، وقد قاموا بحملة هوجاء ضد البدايوني وكتاباته ، وقللوا من قيمة الكتب التي تعتمد على شهاداته ومعلوماته .

وقد رأى المؤلف من المصلحة أن لا يعتمد هذا الكتاب الجديد على ما جاء في كتاب « منتخب التواريخ » للبدايوني فحسب ، لئلا يتخذ ذلك المغرضون وسيلة للحط من قيمة كتابه العلمية والتاريخية ، فاستشهد في وصف « أكبر » وعرض عقائده واتجاهاته وتقنياته على بيان أصدقائه ، ورجال بلاطه الأوفياء المتشيعين له .

عهد الملك جهانكير ، وتكاملت في عهد السلطان أورنك زيب عالمكير ، دراسة تاريخية ناقدة ، ويستفاد في ذلك من كتب مؤرخي الهند المحايدين ، ونبرهن على هذه الدعوى في ضوء كتاباتهم ، لا في ضوء كتابات المؤلفين عن الأسرة المجددية والمؤرخين المتحمسين لهذه القضية ، حتى تكون الدراسة محاية منصفة للفريقين .

وكان من اللازم أيضاً أن تستعرض تلك الكتب والمقالات التي ظهرت في الخمسينات الأخيرة من هذا القرن عن الإمام السرهندي باللغتين الأردية والإنجليزية في الهند وخارج الهند ، وفي بعض هذه الكتابات تحدَّى المؤلفون كثيراً من الحقائق المعروفة والمسلمة ، وأثاروا أسئلة جديدة ، وعرضوا صورة ـ لاستنتاجهم من الوقائع والأحداث على منهجهم الخاص ـ تختلف كل الاختلاف عن تلك الصورة الوضاءة النيرة التي دأب أكثر المؤرخين على إبرازها وعرضها ، ولا يستلزم ذلك أن يسمى كل واحد من هؤلاء المؤلفين والكتاب ، ويرد على دعاويهم واحداً واحداً ، بل إن هذه السيرة المعروضة للإمام السرهندي عرضاً جديداً ، وهذه الدراسة لأعماله التجديدية ، وعصره وبيئته ، سوف تكون رداً حاسماً على شبهاتهم وتفنيد لدعاويهم .

وإنني ـ مع زحمة الأشغال ، وكثرة الأسفار داخل البلاد وخارجها ، وقلة المساعدين في هذا العمل ـ حاولت جهدي أن يظهر هذا الجزء من سلسلة «رجال الفكر والدعوة» الذي يشتمل على حياة الإمام السرهندي ومنجزاته وأعماله ، يحمل مواد جديدة ، لم تعرض بعد ، ونتائج جديدة ، تدعو إلى التفكير والتأمل ، وتبعث على الأمل والتفاؤل ، لعلنا بذلك نقوم ببعض واجبنا نحو هذا العصر ، ونحقق بعض متطلباته ، ونستقبل به القرن الخامس عشر الهجري .

وإلى القراء هذا الكتاب ـ الذي ألّف في لغة أردو ـ منقولاً إلى اللغة العربية ، وقد قام بعملية الترجمة والتعريب ـ العسيرة الدقيقة لاختلاف نفسيتي اللغتين ومحيطهما ، ودقة الموضوع ـ العزيز السيد سلمان الحسيني الندوي ـ بارك الله في

حياته ونفعه ونفع به ـ خير قيام ، وقد انجز العمل وأتمه في مدة قريبة ، فله دعاء المؤلف وشكر القراء ، والأجر من الله الكريم .

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

٢٦ / جمادى الأولى ١٤٠٠ هـ
١٣ / إبريل ١٩٨٠ م

أبو الحسن علي الحسني . الندوي
دارة الشيخ علم الله الحسني ، راىء بريلي

الباب الأول

العالم الإسلامي في القرن العاشر
أهمية الدراسة التاريخية للقرن العاشر الهجري

ولد الإمام السرهندي في شوال عام ٩٧١ هـ ، وتوفي في صفر عام ١٠٣٤هـ ، وهكذا يحتوي عصره على التسع والعشرين سنة الأخيرة من القرن العاشر ، وما يقارب الثلاث والثلاثين سنة الأولى من القرن الحادي عشر. فالذي يؤرخ عصره وحياته ، ينبغي أن يعني بهذه الثلاث والستين سنة إذ هي مدة حياته ، وهي التي تمتد من الثلث الأخير للقرن العاشر إلى الثلث الأول من القرن الحادي عشر .

ولكن ليست ولادة إنسان ـ مهما امتاز به من قوة الشخصية ، وتأثير في عهده وبيئته ـ بداية حتمية لعهد جديد ، يبرز من كتم العدم إلى حيز الوجود كما أنه ليس من المعقول أن لا تؤثر فيه تلك الوقائع والأحداث ، والعوامل التاريخية ، والخلفيات العلمية والعقلية ، والقوى المسيطرة ، والحكومات الموجودة التي كانت تعمل عملها قبل أن يولد ، وكانت تترك على البيئة والمجتمع آثاراً كبيرة ، ولذلك فإنه يتحتم علينا عند الحديث عن حياة الإمام السرهندي ، ودراسة أعماله الإصلاحية والتجديدية ، وإدراك طبيعة عصره ، وتقييم ما كان يواجهه في عمله التجديدي من صعوبات وتسهيلات ، والمقارنة بينه وبين غيره ، أن ندرس العالم الإسلامي ـ كما كان في عصره ـ سياسياً ودينياً ، وعلمياً وخلقياً ، ذلك العالم الإسلامي الذي واجهه الإمام منذ عقل وبدأ يعي ويشعر ، والذي كان عليه أن يقوم فيه بدوره التجديدي الإصلاحي الذي حول تيار الحوادث ، وأرغم التاريخ على أن ينحو نحواً جديداً ، واستحق به ـ عن جدارة كاملة ـ أن يلقّب بمجدد الألف الثاني .

وينبغي ـ ونحن في هذه الدراسة ـ أن لا نغفل حقيقة ذات شأن وهي أن العصر الذي يولد فيه الإنسان ، والعالم الذي يعاصره ، والمجتمع الإنساني الذي يعيش فيه ، هو كالنهر الجاري ، تتصل كل موجة فيه بالموجة الأخرى ، وتتّسق معها ، فلا يمكن ـ لأجل ذلك ـ أن يبقى بلد ـ مهما كان بعيداً نائياً ، يعيش في عزلة عن سائر العالم ـ غير متأثر بالأحداث الخطيرة والثورات العظيمة ، والقوى المتحاربة ، والحركات المؤثرة القوية ، التي تجري في بلدان العالم الأخرى ، لا سيما إذا كان مركز هذه الأحداث والوقائع ، والثورات والتطورات ، بلداً يشاركه في العقيدة والمذهب ، والمشرب ويجاوره في المكان ، ولذلك فلا يجوز للمؤرخ البصير في هذه الدراسة التاريخية أن يقتصر على الهند فحسب ، بل يلزمه أن يلقي نظرة عامة على العالم الإسلامي كله في القرن العاشر ، لا سيا البلدان المسلمة المجاورة ، التي كانت بينها وبين الهند أواصر علمية ، ودينية وحضارية ، وكانت تصل إليها لفحاتها الشديدة اللاذعة ، ونفحاتها الرخية الناعمة ، على بعد الدار وطول المسافة .

الوضع السياسي :

لقد نال الشرق الأوسط ـ وهو المنطقة المركزية للعالم الإسلامي ـ في أوائل القرن العاشر ـ بعد زمن طويل ـ (ولعله بعد السلطان صلاح الدين الأيوبي المتوفى ٥٨٩ هـ) استقراره السياسي ، واجتمعت البلدان العربية الواقعة في آسيا الغربية تحت الراية التي كان رافعوها يعتزون بلقب « حامي الإسلام ، وخادم الحرمين الشريفين ، وحارس المسلمين » وكانوا قد نفخوا في الخلافة الإسلامية ـ التي عادت في مصر كالبابوية النصرانية بعد استشهاد آخر الخلفاء العباسيين «المستعصم بالله » عام ٦٥٦ هـ ـ حياة جديدة ، ولو كان ذلك تحت مصالحهم السياسية ، فقد فتح ياور السلطان سليم الأول مؤسس الخلافة العثمانية ـ ٩١٨ ـ ٩٢٦ هـ بلاد الشام عام ٩٢٢ هـ ، ومصر عام ٩٢٣ هـ ، التي كانت تحت حكم المماليك منذ قرنين ونصف قرن من الزمان ، وكان حاكم مصر ـ حين زحف إليها السلطان سليم ـ قانصوه الغوري ، وأعلن السلطان سليم في نفس سنة ٩٢٣ هـ إعادة الخلافة ، وأنه خادم

الحرمين الشريفين ، ووصّي أميناً عليهما من قبل المسلمين ، ودخلت بعد ذلك جزيرة العرب ، ثم البلدان العربية الإسلامية ، الواقعة في أفريقيا الشمالية ـ عدا المغرب ـ تدريجياً تحت حكم السلطان سليم ، ثم تحت حكم خليفته السلطان سليمان القانوني ، (٩٢٦ ـ ٩٧٤ هـ) الذي يذكره المؤرخون الغربيون باسم (Sulaiman The Magnificent) يعني سليمان الكبير العظيم .

وقد كان عهد سليمان ـ الذي ولد الإمام السرهندي قبل وفاته بثلاث سنوات ـ عهد ازدهار الامبراطورية العثمانية ورقيها ، إذ كانت ترفرف رايتها على النمسا والمجر في أوروبا ، وتزحف جيوشها المنتصرة ـ في جانب آخر ـ إلى إيران ، وكانت العراق كذلك ، مثل الشام ومصر ، انضمت إلى مملكة الواسعة ، فكانت حاكماً لأكبر إمبراطورية على الأرض في عصره ، أما في عهد السلطان مراد الثالث ٩٨٢ ـ ١٠٠٤ هـ فقد اشتملت مملكته على جزيرة قبرص وتونس ، وعدد من ولايات إيران ذات الخصب والريع الكثير ، واليمن ، وتمّ في عصره عام ٩٨٤ هـ بناء الحرم المكي الشريف ، وكان الإمام السرهندي ـ إذ ذاك ـ قد بلغ سن الشعور ، وليس ببعيد أن يكون على علم بهذه الأحداث ، وطبيعي أن يكون المسلمون في ذلك العصر ـ ولو كانوا مسلمي الهند ـ يشعرون بفرح واعتزاز إزاء فتوح الدولة العثمانية ، واتساع رقعتها ، وقد كان الأتراك العثمانيون معروفين بصلابتهم في العقيدة السنّية ، وتمسكهم بالمذهب الحنفي ، الذي كانت تدين به أكثرية مسلمي الهند .

وظهرت في بداية هذا القرن عام ٩٠٥ هـ الأسرة الصفوية في إيران وكان مؤسس الدولة الصفوية الشاه إسماعيل الصفوي ٩٠٥ ـ ٩٣٠ هـ ، وقد أحكمت هذه الأسرة ـ تدريجياً ـ استيلاءها على هذه المنطقة كلها ، واستقلت استقلالاً تاماً ، وكانت حكومة قوية إزاء الدولة العثمانية ، وقررت المذهب الإمامي الجعفري ـ خلافاً للدولة العثمانية ـ مذهب الدولة الرسمي ، واستخدم إسماعيل الصفوي كل الوسائل ، واستغلّ السلطة لنشر هذا المذهب ، والدعوة إليه ، وحاز في سبيل ذلك

نجاحاً عظيماً منقطع النظير في تاريخ الحكومات التي تعني بتحويل الاتجاه الديني للمصالح السياسية ، فأصبحت هذه الحكومة ـ بعد أن أقامت على حدودها سور بشرياً يقوم على الخلاف المذهبي ـ بمعزل عن أن تذوب في دولة العثمانيين التي انتشر فيها من يشاركهم في المذهب السني الحنفي ، من القسطنطينية إلى لاهور ودلهي ، وكانت الأسرة الصفوية تحكم من بغداد إلى هرات .

وكان شاه عباس ٩٩٥ ـ ١٠٣٧ هـ الذي هو أعظم سلاطين هذه الأسرة ، ويعرف في التاريخ بشاه عباس الكبير ، والذي يستحق لأعماله البنائية أن يدعى شاهجهان[١] أسرته ، معاصراً للإمام السرهندي ، وقد بلغت الدولة الصفوية في عصره أوجها ، وذروة مجدها ، فحارب الأتراك ، واحتل نجف وكربلا ، وكان هو معاصراً للملك جلال الدين أكبر ، والملك نور الدين جهانكير ، وأصيبت هذه الأسرة بعد شاه عباس بالضعف والزوال .

وكانت البقعة الثانية من بقاع العالم الإسلامي الهامة بلاد تركستان التي دامت لقرون طويلة مركزاً للحضارة الإسلامية ، والثقافة العربية الدينية ، وتعرف في الكتب القديمة بـ « ما وراء النهر » وكانت لها مساهمة كبيرة ـ بعد العراق ـ في تدوين الفقه الحنفي ، وخلفت عدداً من الكتب القيّمة الخالدة[٢] ، التي لا تزال مقررة في مناهج الجامعات الإسلامية في الهند ، ونشأت فيها الطريقة النقشبندية ـ التي ينتسب إليها الإمام السرهندي وشيوخه ـ ونمت وترعرعت ، وانتشرت منها في أجزاء العالم الإسلامي ، لقد دخلت هذه البلاد ، المخصبة الغنية بالثروات والعبقريات ، في حكم الأسرة الشيبانية فرع الأزبكية في بداية القرن العاشر عام ٩٠٥ هـ ، وبقيت تحت سلطانهم من تلك السنة إلى منتصف القرن الثامن عشر الميلادي ـ إلى ثورة

(١) هو الامبراطور شهاب الدين شاهجان بن جهانكير التيموري (م ١٠٧٥ هـ) باني التاج محل في أكره والمسجد الجامع الكبير في دلهي .

(٢) كهداية الفقه للمرغيناني ، وشرح الوقاية وغيرهما لصدر الشريعة ، وظلا مقررين في المنهج الدراسي طوال قرون .